الفصل ٦

هل ينبغي لنا أن نستخدم معاذير- نعم أو لا..

و إذا شئنا أن نتحدث ببساطة فنحن لا نأتي بكل ما يلزم. وخلال الأجيال والعصور أصبحت المعاذير درباً عريضاً ممهداً يفصل بين ضفتي الحقيقة والأكذوبه ولئن لم يكن من الممكن رؤيته بدقة كدقة الشعرة فإن من الممكن سلوكه مطلقاً. والرجاء أن نتذكر مرة أخرى:

أنه يتم إطلاعنا على المعاذير منذ الطفولة.

١- الكبار يستخدمون معاذير للتملص، يستخدمون أقاويل مجانبةً للحقيقة صغيرة أو كبيرة لتجنب الأمور غير المستحبة:من المحاولات واللقاءات الثقيلة المزعجة والمواعدات التي نسيها امرؤ ما والواجبات التي لا يريد المرء أن يلاحظها.

٢- أما الأطفال فيكذبون فوق ذلك ببساطة مطلقين العنان لأنفسهم ليموِّهوا شيئاً ما أو يطمسوه ويُضْبَطون في هذه الأثناء، وبدافع الخوف من العقوبة الممكنة والنتائج غير المستحبة يتعلم المرء بسرعة بالغة، من نماذج الكبار، كيف يخادع بمزيد من البراعة، وكيف يلفق المعاذير، وما هذه بالأكاذيب وليس المرء بمضطرٍ إلى أن يعيش وضميره يعذبه.

والآن تأتي سنوات التعليم:

أ) أيام المدرسة: أوجه الإهمال والتقصير اليومية تجر وراءها عقوبات: فمنها المجيء متأخراً وعدم إنجاز الواجبات المنزلية، وفرض الطالب نفسه ودفاعه عنها ضمن فريق الفصل الدراسي، وفي محيط العائلة وفي محيط الأصدقاء، بذلك يطالَب التلميذ ويُدَرَّب عليه أما الأعمال العدوانية والتحرشات وأعمال العنف فيتم كتمانها ونفيها عن طريق عمليات الخداع والتمويه. وتغدو الشهادة وامتحان التخرج وتقدير كفاءة الطالب والشهادة الثانوية من الأمور ذات الأهمية الفائقة من أجل التطور المهني اللاحق. هنالك لا يكون بد من تمويه نقاط الضعف وطمسها أو إخفائها إلى جانب ذلك تنشأ في أيام النضج الجنسي العلاقات الغرامية الأولى والغيرة المحتملة حيث يكون السلوك الرجولي الباعث للإعجاب، والنَفْش والتبجح، من الأمور الشائعة المألوفة لمجرد أن يحظى الطالب ذاته بالنجاح وهذا يتجاوز في كثير من الأحيان حدود المعاذير.

ب) الارتقاء المهني: ينظر إلى إنكار نقاط الضعف والأخطار على أنه أمر ضروري. «لا يستطيع المرء أن يعرف كل شيء!» فإذا سارت مسألة من المسائل سيراً حسناً لا شائبة فيه وتم تجنب أشراك الإخفاق عن طريق ملتوية يكون المرء مسروراً ومزهواً بنفسه، قد سُرِّي عنه. أما «الأكاذيب الصغيرة» فيطويها النسيان على الفور. وإذا سارت مسألة سيراً منحرفاً تعلل صاحبها بأن «حظه سيء جداً» أو بأن «هذه المسألة كأنها تنطوي على نفور مني» أو بأن «المسألة دهمته واكتسحته اكتساحاً ببساطة!».

ج) السنوات المهنية: والسنوات المهنية الطويلة تجر معها تراكماً للمواقف التي تتبين فيها أخطاؤنا ويتم فيها تذكيرنا بها. أما إحالات الديون فيتم تحويلها من أعلى إلى أسفل ويضطر المتلقي في الأسفل إلى الدفاع عن نفسه في كل حالة من هذه الحالات أو تبرير موقفه أو تحاشيه. وهنا على وجه الخصوص تُصادَف كثرة المعاذير التي هي معاذير مألوفة ولكن هنا تستوطن أيضاً النصائح المتعلقة بكيفية مواجهتها.

والرجاء أن تلاحظ:

القاعدة الأولى:

كسب الوقت عن طريق عمليات تحويل الانتباه: مثل الشواهد والأمثال والسؤال المندهش فالأخطاء يمكن أن يتسبب بها طرف آخر أيضاً أو تكون الظروف أدت إلى أن يسير شيء ما سيراً منحرفاً.

القاعدة الثانية:

نحن نواجه على مدى حياتنا بأسرها، معاذير الحياة اليومية، من الأصدقاء وذوي القربى وفي محيطنا الاجتماعي ومن جانب المعارف القدامى والجدد. وهي معاذير شائعة ولا تسبب أذى على الأغلب. فالناس جميعاً يطمسون بذلك أشكالا من عدم الانتباه والنسيان ويذوقون خيبات الأمل. ولكن لا ينبغي لهم أن يستخدموها حين يستطيع المرء أن يقول الحقيقة من دون أن يضيره شيء.

القاعدة الثالثة:

وفي حالة المرض والمواساة ينبغي أن لا تتضمن الكلمات مبالغات خاطئة وذلك أن من يعاني من مرض يتمتع بأجهزة التقاط حساسة. فلتكن حذراً عند الحدود الفاصلة بين التشجيع والاهتمام في حالة المعاذير والأوصاف المعدِّلة للأخطاء من أجل تأثّرهم الفعلي وحزنهم.

القاعدة الرابعة:

إذهال الشريك وإثارته:

كثيراً ما تكون الأجوبة غير المألوفة، بدلاً من رأيك الحقيقي وأحكامك الشخصية، عوناً كبيراً يساعدك على أن لا تكون مسمَّراً بإحكام إلى تصريحاتك التي يمكن أن تلحق بك الكثير من الضرر.

القاعدة الخامسة:

لابد للمعاذير في مضمار اختصاصك المهني أن تبدو مقنعة، ويبدو عليها الاجتهاد من أجل مصلحة زبائنك، وينبغي لها أن تؤكد على معرفتك الاختصاصية إلى حد ما بهدوء ولابد للمخاطب أن يكون في وسعه أن يثق بك فهو لا يعرف شيئاً عن مهنتك غير أنه يحتاج إلى معونتك.

القاعدة السادسة:

ينبغي لك أن تواجه معاذيرك مواجهة أكثر نقداً. فما يقال إنك تفعله من أجل الآخرين له أيضا جذور في نفسك ذاتها: ألا وهي الإشباع والسرور الباطني وتأكيد الذات.

وإنما يكمن السرور الباطني في معاذيرنا في أنه كثيراً ما يسعفنا في التخلص من المواقف الحرجة بصورة ممتازة. وهذا يجعل منا أناساً متفائلين. وبذلك يتم محو الخطأ الجمالي الضئيل المتمثل في قولك «لقد اقترفت مخادعة في الحقيقة».

«وقد كان لا بد لي أن أستعمل المعذرة استعمالاً بسيطاً وإلاَّ كان كل شيء عبثاً» ولكن تكمن في معاذير المرء حيال نفسه أيضاً جذور الهرب من المتغير والهرب من المخاطر أو تحمل المسؤولية:

«لقد كنت خليقاً آن أسر بقبول العمل في الخارج أيَّما سرور، ولكن أمي المريضة ما كانت لتظل على قيد الحياة بعد فراقي»، «لم يكن في وسعي مواصلة العمل في المهنة، إذ كان يفترض في الأطفال أن يكون لهم عشهم الجميل في منزلهم...»، «لو لم أكن ممسكاً بزمام الأمور في المؤسسة وأنافيها من الصباح إلى المساء لانصرف أربعون من العاملين معي خلال أجل قريب وذهبوا يتقاضون تعويض البطالة . ولابد لواحدٍ منا أن يفعل ذلك...» وفي هذه الحجج لا يكاد يكون من الممكن تمييز المعاذير وهي أن المرء لا يريد أن يقدم على الخطة الحاسمة بنفسه أبداً.

القاعدة السابعة:

ينبغي أن تظل كل معاذيرك دائماً على حدود الحقيقة، ولابد أن يعتقد المرء أن هذا يمكن أن يكون ممكناً وخلال هذه الوهلة يفترض في شريك الحوار أن يفكر قائلاً:

«ماذا يقصد بذلك يا ترى؟»

«أجل ماذا قصد بهذا»

«ماذا يفترض أن يعني هذا الآن؟»

وفي كثيراً جداً من الأحيان تحول مثل ثانية الفزع هذه دون معاودة السؤال مرة أخرى وتحول دون السؤال المتكرر الملح أو الاتهام. وأنت تستطيع على الأغلب عندئذ أن تحوِّل الانتباه عن الموضوع الحرج وتتطرق إلى وجهة أخرى للحوار.

والرجاء أن تتجنب ما يلي:

التلعثم الحائر «أجل إذاً - أجل - لست أدري.... إذاً، ماذا ينبغي لي أن أقول في هذا، أجل في اللحظة الحاضرة...» وبذلك تكشف عن انعدام الحزم وعن أنك ضُبِطت كما تكشف عن اعتراف بالذنب.

والرجاء أن تتجنب أيضاً: الدفاع الغاضب: «أما إن هذه لوقاحة! كيف تستطيع أن تدعي شيئاً كهذا! هذا شيء لا بدلك أن تثبته لي أولاً! هلاَّ عدت أدراجك إلى بيتك! لا يحق لك أن تقول لي شيئاً على الإطلاق، ولست مضطراً إلى قبول شيء منك على الإطلاق!» وبذلك تكشف عن تأثرك وعن وخزِ ضميرك وعن تنصلك من الذنب لان لديك بلا ريب شيئاً تخفيه وممن الممكن أن ترد على لسانك شتيمة أو إهانة من دون انضباط وهو ما سوف تندم عليه بعد ذلك ويلحق بك الضرر.

القاعدة الثامنة:

تمرَّن، في كل الفرص المتاحة، على ردود الأفعال المتميزة بحضور البديهة! وحين لا تضطر إلى استخدام معاذير. فلتتخذ إجراءات وقائية في الأحاديث، بصورة فورية وصائبة، تصيب في الصميم باقتراحات لمعاذير المفاجأة والإذهال، إنها مجاملة تتسم في شطر منها بالحسد وفي شطرها الآخر بالإعجاب عندما يقول أحدهم عنك: «هذا الرجل يخطر بباله دائماً شيء ما!» وهناك أحياناً أجوبة بعيدة كل البعد عن الشيء المعتاد بحيث يظل المرء وقتاً طويلاً يفكر متسائلاً هل يصح هذا أم هو مجرد عذر يتسم بحضور البديهة يتخلص به الطرف الآخر من الموقف الحرج. ففي معرض لأحد فناني الجرافيك كان يعرض موضوعات من الميثولوجيا وتصاوير للإله والأبطال، شرح الفنان ملكاً أسطوريا كان يستوي على عرشه المكوَّن من حجر النرد بالصولجان وبيضة المُلك.

وقال أحد المتفرجين بعد المناقشة المستفيضة: هذا الملك يطرف بعينه الحولاء، بوضوح كامل بلا ريب، فأجاب الفنان بعد أن فكر بجزء من فكرة ما، بإقناع وطلاقة: «بالطبع فهو ينظر بإحدى عينيه إلى الداخل دائماً» فهل يُعد هذا مقصداً فنياً أم معذرة بارعة؟.

على أن الرسام ذاته عرض عملاً آخر كان من الواضح الجلي أنه يعالج موضوعاً قتالياً، وكان من الممكن أن يميز المرء في إحدى الزوايا على الحافة العليا للصورة، ببعض الخيال، إوزة، وسأل أحد المتفرجين وقد فوجئ قائلاً ما الذي يفترض أن يعبر عنه رمز

الطهارة هذا في أتون المعمعة، ومن دون تردد أجاب الفنان قائلاً: «إني لمسرور بأنك تميز هذا الرمز، فحتى في أسوأ المواقف يكون هناك دائماً، أيضاً براءة وطهر، ولم ينقُض ذلك أحد، ودهش بعضهم ولكن لم يجرؤ أحد على الارتياب في هذا، وكان رجلاً من طراز منشها وزن بصورة كاملة!.

وخلال إحدى عمليات تبديل مسكننا المتعددة، قررت بعد ثلاثة أيام أن نوافذ الشرفة الكبيرة لم تكن مُحكمة الإغلاق، وشكوت من ذلك بإلحاح لدى المؤجر، وطالبته بإزالة هذا العيب بصورة مطلقة، فهز برأسه وقد استحوذ عليه أقصى العجب، وقال: «إن هذا النقص في الالتحام مقصود! ولابد أن يكون بالضرورة من أجل تنظيم دخول الهواء فوق جهاز التدفئة! وقال: هذا مهم جداً للصحة ولراحة الساكنين! وإن المهندس قصد إلى هذا أثناء البناء». وتعثرت الكلمات في فمي، وكيلا أجرَّ على نفسي داء الجريب المزمن في الرأس أوْعزت آخر الأمر بنفسي إلى عامل تركيب الزجاج بسد النقص في النوافذ. وفي حجرة الانتظار عند طبيب للعنق والأنف والأذن كان عليَّ أن أزوره في إجازة شتوية، كان الجو شديد البرودة، وكانت أجهزة التدفئة مخلوعة، مرمية في ركن من الأركان. وحين أشرت إلى هذا التقصير لم يزد الطبيب البدين جداً على أن هز برأسه مبتسماً في مودة، وقال: «لابد للمرء أن يرتعد من البرد مرة في السنة كي يحقق التأقلم بذلك.، وكان ينبغي لك أن تلاحظ هذا» كلا - ففي بعض الأحيان تصح بعض النصائح، أو المعاذير العائدة إلى السيد

شفايك أيضاً، إذا ما وجهت إلى آذان صم... وعلى النقيض من ذلك كانت حجّة حذّاء خاص بالأطفال في مصحّ صغير في إقليم بادِن، أوعزتُ إليه بعمل رقائق من الجلد لحذائي الذي كنت أتجوّل به، ليست مما يُرفض كل الرفض، وكانت وصفة الطبيب معي. وقال الحذّاء الطّلق الأسارير ضاحكاً: «ويلاه، ها نحن أولاء نجد قدماً مسطحة، مرة أخرى، وتدخلتُ وأنا أقول مصححاً، برقة: «الطبيب يقول إنها قدم مفرشَحة، ولكن المعلّم الطيِّب لم يَزِدْ على أن هزّ برأسه في مرح: «قدم مسطحة، فأنا رجل ممارس وأنا أنطلق من وجهة نظر أخرى».

القاعدة الأخيرة:

إذا أُرتِج على شريكك في الكلام ولم يُحِر جواباً على وجهة نظرك، أو زاوية نظرك، ومعاذيرك الإذْهالية والتعبيرية الكلامية، أو ظلّ فمه فاغراً فسيكون الكتاب قد حقق غرضه، وستكون المؤلفة مسرورة بهذا.